

## أوجد مَنْ يصدّقني؟

مكار يوس جبّور

أوجدُ مَنْ يصدّقني إذا قلتُ إنّي طيفٌ يخاطبُ الجماهير المحتشدة لتشاهد آخر  
عرض يُقدّمه مَنْ باتتِ الحياةُ نُز عجه إلى أبعد الحدود؟  
طيفٌ أنا يبحثُ عن وطنٍ لأبنائي، وطنٍ يُشبه تلك البلاد التي نقرأ عنها في كتب  
الأساطير.

وزعتُ الأحلام على جيلٍ بأكمله متذرّعاً بأنّ الأحلام تتحقّق، وبأنّ بيوتنا من  
خشب ستكونُ أعشاشاً لطيور الغد، وإذا بالأحلام تظهرُ أوهاماً لا أساس لها في  
عالم الواقع.

طيفٌ أنا يفتشُ عن فقرٍ يهديه لبعض الأغنياء، فقر لا يُلحق بهم العار، لعلمهم  
يصحون من سُباتِ فكرة "معك قرش تساوي قرشاً".

طيفٌ أنا يبحثُ عن مرضٍ لا يؤذي لأبعث به كدواءٍ شافٍ لبعض أرباب  
القصور، وأعرف بأنهم مثلي يتألّمون أيضاً، غير أنّ المهم يختلف عن ألمي في  
جميع أشكاله وملامحه... وفي جميع الأحوال نتفق معاً على السؤال: لماذا لا  
تتحقّق أحلامنا؟

طيفٌ أنا يابى التفوّه بالخطابات وقد أدركتُ أنّها ليست إلا مجرد كلمات.  
طيفٌ أنا لأنّ عصر "مدينة المحبّة" للقديس باسيليوس الكبير قد ولى وعبر،  
وأصبحت مدينته مقبرة للأشباح.

طيفٌ أنا حاول إقناع الأبناء بمستقبل أفضل، وقد نسيتُ أنّ ما بقي من عمري  
لن يكون أطول ممّا فات.

طيفٌ أنا يُنشد ألحان النصر والانتصارات وكأنّ عصري لا يزال عصر  
الإسكندر المكدونيّ وعصر الفتوحات.

طيفُ أنا لأنّ جميع ما فيّ يتناقضُ مع جميع ما في أبناء هذا الجيل، هم في وادٍ وأنا في آخر، ولا هم لي سوى المحافظة على الأعراف والقوانين.

إنّهم على حقّ إذا ما نعتوني بالرجعيّ والقادم من غابر الزمان، أنا طيف لأني لم أستطع أن أقنعهم بأنّ النرجيلة سمّ مهلك، وظننتُ نفسي أخيلس غير أنّ النرجيلة قد انتصرت عليّ وعلى أولادي.

طيفُ أنا لأني مهما قاومتُ فسيأتي يوم وأرضخ فيه للخلوي في كنيستي... أليس هذا زمن التطور والتقدم التقنيّ؟

طيفُ أنا لأني أريدُ نصرًا لأبنائي لا شماتة فيه. ولأني أريد لهم عيدًا لا خيانة وراءه. ولأني أربح لهم بزيجات لا تجمعها المصالح العابرة. ولأني أطلبُ بصلاة ليس فيها "فلكلور"، أو ربمّا بصلاة لا تحتوي على كلمات.

ألسنُ طيفًا؟ نعم، وألف نعم. طيفُ أنا لأنّ ما أحلم به غير قابل للتحقيق، فالقوافل تسير وأنا وحدي أغردّ خارج سرب هذا العصر.

فهل ستصدّقون عظاتي بعد الآن؟ لأنّ كلماتي لن تكون بديلاً عن الحليب لأطفالكم، وخطاباتي لن تصير أدوية لأمراضكم. ولن تقدر مسكناتي على إنقاذ أبنائكم من اليأس المحتم. ولن تفلح وقاحتي في إعطاء الحقّ لصاحبه عند "قضاة الإثم". وحتىّ جميع صلواتي لن تنفع طالما أنّي "لم أطعم جائعًا، وعطشانًا لم أسق".

أنّ الآوان لأركب في سفينتي وأبحر إلى حيث أحلامي الوهميّة لعليّ أجدُ هناك في الأفق عصر "جمهوريّة أفلاطون" المثاليّة.